الاحد 17 مايو 2009

وليد رعد عارضاً في «الرد كات» بلوس أنجلس «طبيعة صامتة» اختفت في المسافة بين مدينتين

بلال خبيز

عرض وليد رعد في «الرد كات» بلوس أنجلس عمله الذي سبق له أن عرضه في بيروت في «غاليري صفير ـ سملر»، تحت عنوان «الجزء الأول من المجلد الأول لتاريخ الفن اللبناني». وليد رعد دائماً يبدأ بجزء أول من مجلد أول، لكن الأجزاء التالية غالباً لا تأتي. يفتح ملفات، وينتظر من يستكملها، فيما هو منصرف إلى فتح ملفات جديدة. هذه ملاحظة يجدر بالمرء ان يفكر مرتين قبل إطلاقها. أهي الملفات نفسها التي لا تعود صالحة للاستكمال بعد أن تفتح، أم أن الفنان هو الذي ينصرف عن استكمالها؟ ثمة أسباب تدعو المرء لأن يفكر في الاحتمالين: فنان ينصرف عن ملفات يفتحها إلى ملفات أخرى، وملفات ما إن يتم فتحها حتى تفسد مادتها وتمّحي تماماً. من ذا الذي في وسعه أن يستكمل عملاً فنياً في لبنان؟

المحو، حيث باطن الملفات لا يتضمن معلومات. يدوّن وليد رعد على حائط ابيض باللون الأبيض أسماء فنانين تشكيليين لبنانيين. الأسماء نفسها تكاد تكون ممحوة، أما الأعمال، فلننتظر! في استطاعة أي كان أن يفكر في معنى عرض الأسماء الممحوة في لوس انجلس. لوس انجلس تمحو فنانيها أصلا، فكيف سيكون حال فنانين لبنانيين هنا؟ لكن وليد رعد عرض الأسماء الممحوّة في بيروت. في بيروت، ثمة من فكر، وبعضهم تجرأ على القول: وليد رعد، هذا: ما يعرفه عن الفن اللبناني، القليل القليل، إلى حد انه يكاد لا يعرف شيئاً.

إنما، ماذا لو كان وليد رعد يعرف الفن اللبناني جيداً؟ إذا كان وليد رعد يعرف، وهو يعرف، وصنع عملاً مرشحة مادته للمحو، فأين يجدر به أن يعرض عمله، بين لوس انجلس وبيروت؟ اين هو المكان الذي يتوسط المسافة الفنية والثقافية، والسياسية من دون شك بين المدينتين؟

في بيروت يقولون ان وليد رعد نيويوركي الإقامة والمعرفة. النيويوركيون لا يعرفون عن لبنان الشيء الكثير. الرئيس السابق، جورج بوش، كان دوماً يقول: نريد ان ندافع عن ديموقراطية لبنان الناشئة. ربما لم يصل إلى سمعه أن لبنان أجرى أول انتخابات برلمانية قبل وعد بلفور. وان الانتخابات في لبنان لها تاريخ، بل وتكاد أحيانا تكون واحداً من أهم مصادر الدخل القومي، وسبباً من أسباب ارتفاع معدل الاستهلاك. على اي حال، فلنترك مثل هذه الأمور للمهتمين بالاقتصاد اللبناني. وليد رعد في لبنان هو نيويوركي بالنسبة للبعض، يجهل كل شيء عن الفن اللبناني، بل انه يخطئ في تهجئة الأسماء. والخطأ مردود، وليد رعد يصحح خطأه على الجدار الذي يعرض عليه أسماء الفنانين. كل أسماء الفنانين تكاد تكون ممحوة، إلا هذا الخطأ. الخطأ وحده يعلم بالأحمر، أما الصحيح فأبيض ابيض، ولا يكاد يُرى.

في لوس أنجلس، يقولون إن وليد رعد لبناني، يعرض لنا عمله بلغة لا نستطيع فك عجمتها، ويصر على نزع الألوان عما يعرضه. نحن مع وليد رعد لا نرى، ولا نفهم. هذا فن لبناني، ونحن أميركيون.

بين لوس أنجلس وبيروت ثمة مكان ما يفترض أن يكون فيه العرض واضحاً للمشاهد، ومعقولاً لمن يريد ان يعقل.

عمل وليد رعد الأخير ليس عملاً عديم اللون. هو يعرض أيضا صوراً ضخمة لتفاصيل تتصل بالفن اللبناني عموماً: عنوان كتاب عن الفن اللبناني، مثلاً، دراسة عن الفن اللبناني وصلت إليه ولم يقرأها، وما زالت مغلفة بالسيلوفان، أغلفة كتالوجات فنية لبنانية نزعت منها عناوينها... لكن هذه الصور ملونة، ازرق واحمر واصفر وترابي الخ. اللون لا يفصح أيضا. ثمة كلام مدروس هنا تماماً، والأرجح انه صار رسماً دارساً، على حد تعبير أبي نواس. حين يحضر اللون تغيب الأسماء، وحين يغيب اللون تحضر الأسماء. كما لو ان الفن اللبناني يُقرأ من جهة واحدة فقط. إنما مع ذلك، كما لو ان الفن اللبناني، كلاماً وأسماء، لوحات ومنحوتات، غير قابل لأن يتموضع في صور، هي نسخ عن الأصول. أين هو الأصل؟ وليد رعد يخبرنا عن مخزون وزارة الثقافة اللبنانية من اللوحات: عدد هائل من اللوحات الأصلية لرواد ومعاصرين وبين بين، مركون في الأقبية. لطالما كان لبنان بلداً لا يتسع للمتاحف. بلد لا يحسن التقدم من دون تدمير ماضيه: لبنان ليس بلداً ضعيفاً، لم تعد قوة لبنان في ضعفه. علينا أن نمحو الضعف تماماً حتى يتسنى لنا إثبات القوة. حتى الأمهات الثكلى لا يحق لهن البكاء على أبنائهن الموتى، لأن لبنان لم يعد ضعيفاً، والبكاء علامة ضعف! لبنان فينيقي، لبنان أوروبي، لبنان سوري ولبنان عربي، وثمة من يطمح أن يجعله فارسياً أيضا. كل هوية تمحو سابقتها، وكل اسم يقتل أباه. في بلد هذه حاله من التنكر هل ثمة ما يبقى من الكلام غير اللون؟ هل ثمة ما يبقى من اللون غير البياض؟ ولو شئنا أن نلتقط صوراً لما فقدناه، فهل نستطيع ان نصور صوراً أكثر تعبيراً وأقوى أثرا من صور الدمار اللبناني الهائل الذي تنتشر صوره في العالم اثر كل حرب؟

طيب، لا في لوس أنجلس ولا في بيروت، ولا حتى في باريس التي تقع في منتصف المسافة، يستطيع

الكلام اللبناني أن يتخذ شكلاً ويستطيع اللون اللبناني أن يحمل معنى. إنما نحن نعرف أن ثمة كلام كتب، وألوان وضعت على القماش، نحن نعرف أنها حدثت وأنها أحيانا أمتعت، وأحيانا أبكت وفي أحيان أخرى كثيرة كانت طافحة بالرجاء. لكن ما لا نعرفه بالضبط أين ذهبت؟ اين قد نجدها؟ في عمل وليد رعد ثمة اقتراح بهذا الخصوص. ذلك انه يعرض على الجدار الثالث من جدران «الرد كات»، رسماً تفصيلياً لعمل من أعمال وليد صادق معروضاً في أكسفورد ببريطانيا. وليد صادق اشتغل على لوحات عمر الانسي، فتش عنها كثيراً ولم يعثر على آثارها. ليس بالمعنى المادي، فبعض أعمال الانسي ما زالت موجودة لدى بعض المهتمين. إنما بالمعنى الذي يتحدث عنه عباس بيضون وهو يتعرف المدن. بيضون في أعماله الشعرية عموماً وفي مجموعته «لمريض هو الأمل» خصوصاً، يتعرف المدن من اللوحات: هذه البحيرة هي التي رسمها مانيه، وهذا القصر هو الذي رآه في لوحة دافيد، وهذه سهول بيسارو، الفنانون هم من يصنعون ألفة المدن. وليد صادق يفتش على عمر الانسي لكنه لا يجده. فنان لبناني رائد، إنما ما الذي بقي من لبنان الانسي اليوم؟ لم يلبث صادق أن استعاض عن غياب للمشهد بكلام يصف فيه المشهد المرسوم؟ على ورق ابيض مستطيل كتب وليد صادق سيرة بعض لوحات الانسي، وعرضها في أكسفورد. وليد رعد أعاد رسم صور الجدران التي عرضت عليها هذه التعريفات، وجعل من بطاقات وصف اللوحات المعلقة على الجدران مشهداً، أو لنسمه بلغة الفن التشكيلي «طبيعة صامتة». الفرنسيون يقولون «طبيعة ميتة»، الانكليز يفضلون تعبير الجمود على الموت، الأرجح إنها ميتة. وليست صامتة. هكذا فكر وليد صادق وأحسب انه محق. ماتت ولم يبق غير رثائها المعروض بخجل وتواضع على جدران معرض الفن الحديث في أكسفورد. وليد رعد تمسك بهذه اللحظة الفنية بالضبط، وهي لحظة زائلة، إذ بعد انتهاء معرض «الزمن العام» في أكسفورد، أزيلت بطاقات وليد صادق عن الجدران، وحلت محلها أعمال فنان من بلد آخر، لكن وليد رعد شاء أن يجعل من لحظة العرض في أكسفورد طبيعة صامتة أو مشهد أول لطبيعة صامتة من لبنان. اختفت من الحيز المكاني، لكنها بقيت في الصورة التي يعرضها رعد. وحيث أن المكان في بلد كلبنان هو المتغير، لا يبقى من أسباب الثبات والإقامة إلا الذاكرات. في هذه الذاكرات بالتحديد يتم إنشاء الطبيعة الصامتة اللبنانية، وعلى هذه الذاكرات يفترض بنا أن نؤسس فنوننا.

اقتراح مجهد من دون شك، لكنه فاعل وحي. ولهذا السبب بالتحديد لن نستكمل عمل رعد بجزء ثان من المجلد الأول. وليس رعد في وارد استكماله أيضا. الجزء الثاني لم يتكون بعد. يقولون في لبنان انه لم يصر بلداً بعد. ما زلنا في الجزء الأول من أجزاء تكون البلد: اتفاق الطائف الذي لم يطبق، وثمة من يريد القفز منه إلى المجلد الثاني دفعة واحدة: اتفاق الدوحة. بلد لم يكتمل نموه بعد، وهذا ينسحب على طبيعته العذراء وشوارعه ومجالسه النيابية. لكنه غير مكتمل النمو في الأصل والأساس لأنه موعود على الدوام بحروب مدمرة. من ذا الذي تملى جيداً في عين الدمار؟ من ذا الذي يستطيع أن يفرّق في صور ضاحية بيروت الجنوبية بعد حرب تموز العام 2006، بين مبنى وآخر، بين ركام وركام. يوم تحولت المباني إلى ما يشبه عدو الإرهابي وضحيته الذي لا يحق له أن يتمتع باختلاف درجات العقوبات. الإرهابي يعتقد أن كل من خالفه الرأي عدوه، وان العقوبة الوحيدة التي يمكن أن ينزلها به هي الموت. فالناس بالنسبة للإرهابي هم موتى بالقوة إلى أن ينزل فيهم العقاب فيصبحون موتى بالفعل. حتى قبل أن يموتوا لا يحق لهم أن يدّعوا أنهم أحياء.

في لبنان اليوم، شاعت بين بعض اللبنانيين فكرة أن كل من يخالفنا الرأي هو عدونا. ونجح عقل الإرهاب في تحويل شعب بأكمله، قيادة وقاعدة، إلى شعب من الجواسيس. في لبنان أيضا وأيضا، تقصف الطائرات مدننا، لا تفرق بين طبقة وأخرى، وبين مركز عسكري وشقة مدنية، عقوبة المباني العاصية هي الموت، وليس من مجال لاستئناف الحكم. الطائرات التي تهدد مدننا وقرانا كل يوم بالدمار تتحرك وفق ما يعقله الإرهاب، أو ربما مؤمنو القرون الوسطى: سئل رئيس دير سيتو في جنوب إيطاليا ما العمل وقد تحصن الهراطقة في المدينة فلم نعد نميز المؤمن من الهرطوق، فقال: اقتلوهم جميعاً وسيعرف الله أتباعه.